فريد غانم

أكثر من شرخٍ في الأسطورة

"١٩٢٩، سنة الصِّفر في النزاع اليهودي العربي"

(تأليف المؤرّخ د. هيلِل كوهن. باللغة العبرية. إصدار دار النشر "كتب كيتر (٢٠٠٥) م.ض." للعام ٢٠١٣. يقع الكتاب في ٤٣٥ صفحة من القطع المتوسط.)

اشتهر د. هيلِل كوهن، وهو مؤرّخ ومحاضر في الجامعة العبرية في القدس، بكتابه ذائع الصّيت "عربٌ جيّدون" (للعام ٢٠٠٦). وألحقه بثلاثة كتب والعديد من الأبحاث، تمحورت كلّها حول العلاقات بين اليهود والعرب والنزاع العربي–اليهودي. غير أن هذا الكتاب (١٩٢٩، سنة الصِّفر...) يتميّز عمّا سبقه ليس فقط بأسلوبه وبتحدّي الرّواية الصهيونية عن أحداث العام ١٩٢٩ (وإلى حدٍّ كبير، تحدّي الرّواية العربية)، وإنّما في الأساس لكونه يطرحُ استنتاجاً مثيراً مفادُه أن أحداثَ العام ١٩٢٩، وخصوصاً في الخليل وصفد، هي التي أسّست للمجتمع اليهودي ولدولة إسرائيل بمزاياها الراهنة ووحّدت التيارات والمجموعات اليهوديّة، الصهيونية مع غير الصهيونية والغربيّة مع الشرقيّة والدينيّة مع غير الدينيّة، تحت سقف الحركة الصهيونيّة، وبلورت النزعة العسكريّة في المجتمع اليهودي وحوّلت المعارضين إلى أقليّة هامشيّة.

من حيث الأسلوب، اختار المؤلّف أسلوبَ السّرد القصصي أو الرّوائي. فبدلاً من إحالة القارئ إلى مصادره، عبر الترقيم والهوامش، اختار كوهن تضمين مصادره وكل المقتبسات في إطار النصّ، مما جعل النصَّ سلساً للغاية. كذلك، لم يرتدع المؤلف عن القفز إلى الأمام وإلى الوراء، زمنيّاً، مسلّطاً الأضواء الكاشفة عن شخصيّات وأحداث روايته، ومسالك تطوّرها أيضا فيما يتعدّى الحبكة الرئيسة. وبذلك، حقّق الكاتب عنصرين أساسيْن من عناصر العمل الروائي والدرامي الكلاسيكي، وهما التشويق (مثل توقفه في لحظة دراميّة، ليقول: وهو ما سنتحدث عنه أو نكشف عنه بالتفصيل لاحقاً) والإضاءات الارتداديّة (flashback)، بمعنى إقحام أحداث وشخصيات من الماضي في معرض الحديث عن الراهن. وفي المحصّلة، فإن المؤلّف ينجح، من جهة، في شدِّ القارئ وإثارة فضوله، وفي أن يضع في متناول يديْه نصّاً سهل التناول، وكلُّ ذلك بدون

غير أن الكاتب يسعى، حصراً من خلال التفاصيل وعرض الأدبيات العربية واليهودية والانتدابية، أن يميّز بين التاريخ الحقيقي من جهة وبين الأسطورة التاريخية من جهة ثانية، أو بكلمات بديلة، يسعى للإثبات أنَّ طرفي النزاع رأوا، عمليّاً، الأحداث نفسها وخلفياتها كلٌّ بمنظاره، فتحول التاريخ وكتابته ووعيه إلى حالات نسبية وإلى وعيَيْن متناقضيْن. وساهم في ذلك طمس الكثير من الحقائق المعروفة للطرفين أو تهميشها، بما يتناسب مع مصالح كلّ طرف، أو تشويه الحقائق وبناء قناعات مبنية على الوهم والإشاعات. ويندرج في هذا السياق المنافسة بين الطرفين، اليهودي والعربي، على تولّي دور الضحية وإسناد دور المعتدي للطرف الآخر،

التنازل عن الدقّةِ في نقل المعلومات والجدّيّة في البحث، وكذلك في التنويع غير المسبوق في المصادر العبرية والعربية والبريطانية، وتضمينها كلّها في ذيل الكتاب.

حظي كتاب "١٩٢٩، سنة الصّفر في النزاع اليهودي–العربي" باهتمام كبير في الأوساط الإسرائيلية اليهودية، وتدرّجت ردودُ الفعل بين التهجماتٍ السوقيّة أو التحريضيّة السافرة خصوصاً من أوساط اليمين الإسرائيلي المتطرّف، مروراً بالانتقادات الحادّة ولكن الرّصينة (مثل انتقادات المؤرّخ بيني موريس) وانتهاء بالنّقد الإيجابي الذي أشاد بالكاتب، أسلوبا ومضمونا وتنويعا في المصادر، إلى جانب التحفّظات من بعض استنتاجات الكاتب. ولعلَّ القضيّة الأساس التي أثارت حفيظة مهاجمي الكاتب والكتاب تتمحور ليس حول الأسلوب والمصادر، وإنّما حول واقع أنَّ د. كوهن يلقي الأضواء على حقائق طمستْها القيادات والأدبيات اليهودية، السياسية والصحافيّة والأكاديمية. وهي حقائق تشكِّل في رأينا زعزعةٍ للأسطورة متعددة الجوانب، التي تبلورت على خلفية أحداث العام ١٩٢٩.

من المعلوم أن أحداث ١٩٢٩، التي قُتل خلالها ١٣٣ يهودياً منهم ٦٤ في مدينة الخليل وحدها، وجُرح ٣٤١ يهوديّاً، خلقت مجموعة من الأساطير المؤسسة لدى اليهود: الأولى وربما الأهم، أن العرب وعلى رأسهم المسلمون، يكرهون اليهودي لمجرد كونه يهوديّاً بغض النظر عن كونه يهوديا عربيا أو غربيا، أو كونه صهيونيا أو غير صهيوني، أو كونه داعيا لإقامة دولة لليهود بالقوة أو في انتظار ظهور المسيح، أو كونه من سكان البلاد منذ مئات السنين أو قادماً جديداً. وتكملة لهذه الأسطورة، تجمع المصادر اليهوديّة على أن العرب الذين تعرضوا لعمليات القتل كانوا من حملة السلاح أو أنهم قتلوا بأسلحة شرطة الانتداب، باستثناء عدد من الأفراد. والأسطورة الثانية، أن العيش تحت سلطة شعب آخر تعني المهانة والتعرض لمخاطر الذبح والقتل، أسوة بما جرى لليهود على مرّ التاريخ وفي كل مكان، لمجرد كونهم يهودا. والأسطورة الثالثة، هي ضرورة الاعتماد على القوّة العسكرية لحماية النفس. وهي أساطير يتناولها هيلل كوهن من خلال سوْق التفاصيل على عرض كتابه وطوله، ويلخّصها في خاتمة الكتاب.

غير أن الكاتب يسعى، حصراً من خلال التفاصيل وعرض الأدبيات العربية واليهودية والانتدابية، أن يميّز بين التاريخ الحقيقي من جهة وبين الأسطورة التاريخية من جهة ثانية، أو بكلمات بديلة، يسعى للإثبات أنَّ طرفي النزاع رأوا، عمليّاً، الأحداث نفسها وخلفياتها كلٌّ بمنظاره، فتحول التاريخ وكتابته ووعيه إلى حالات نسبية وإلى وعيَيْن متناقضيْن. وساهم في ذلك طمس الكثير من الحقائق المعروفة للطرفين أو تهميشها، بما يتناسب مع مصالح كلّ طرف، أو تشويه الحقائق وبناء قناعات مبنية على الوهم والإشاعات. ويندرج في هذا السياق المنافسة بين الطرفين، اليهودي والعربي، على تولّي دور الضحية وإسناد دور المعتدي للطرف الآخر، وعلى تحويل الأفراد الذين ارتكبوا عمليات ضد الطرف الآخر إلى أبطال، وتغييب أدوار العرب الذي خاطروا بحياتهم من أجل إنقاذ يهود عزّل ودور اليهود الذي عملوا على إنقاذ عرب عزّل.

يعي هيلل كوهن أنه، على مدة حوالي خمسة وثمانين عاماً منذ العام ١٩٣٠، لم يصدر أيّ كتاب من الطرف اليهودي أو الإسرائيلي حول الموضوع. وحتى المؤرّخون الذين تناولوا الموضوع، مثل المؤرخ إيلان بابي (معارض للصهيونية) وبيني موريس (مؤرّخ صهيوني)، تناولوه عرَضياً في سياق بحث مواضيع أخرى، وساقوا مقولات – وفق هيلل كوهن – بدون تحقيق وبدون تدقيق. ويبدو أن الطّرف اليهودي، في هذه المعادلة، اكتفى بما خلقته الأحداث من أساطير مؤسسة للمجتمع اليهودي الإسرائيلي، في صالح الحركة الصهيونية وعلى رأسها التيّار اليميني، ففتحت الباب على مصراعيه لأدبيّات وسيرٍ ذاتيّة ومذكّرات صادرة عن شخصيات يهودية عاشت الفترة، بهذا الشكل أو ذاك واكتفت بالأسطورة على ما فيها من تشويه ونظرة أحاديّة الجانب. ومن هذا الباب، فإن كتاب كوهن والمعلومات الموثّقة التي يسوقُها، بما فيها أدبيات ومناشير صادرة عن أوساط دينية هامشية وغير معروفة لعامة اليهود، تنسفُ الكثير من الأدبيّات المؤسسة للأساطير. ويضيف المؤلف سلسلة من الأسئلة والتساؤلات، التي من شأنها خلق شرخ في بنية الأساطير القائمة على الرّواية الشائعة والمتبنّاة لدى اليهود. وفي الوقت نفسه، وبناء على مقارنة الوثائق والمستندات والبيّنات من المصادر المختلفة، يسعى كوهن إلى دحض العديد من مُركّبات الرّواية العربية للأحداث نفسها. وفي كلتا الحالتين، فإن كوهن لا ينسب الهوّة الشاسعة بين الفهم التاريخي للأحداث نفسها عند اليهود، من جهة، وعند العرب من جهة أخرى، إلى مخططات وبرامج ونوايا مبيّتة بالضّرورة، وإنما (أيضاً) إلى قوّة المشاعر القومية لدى الطرفين والميل الطبيعي، في حالات مثل هذه، إلى التحيّز لمجموعتك بصرف النظر عن الخلافات الداخلية، ورفض رؤية وجهة النظر الخاصة بالطرف الآخر.

يعود هيلل كوهن، خلال سرد التفاصيل والوثائق، مرة تلو المرة للتأكيد، صراحةً أو إيحاءً، أن أحداث العام ١٩٢٩ هي الأحداثُ المؤسسة للهوية اليهودية الإسرائيلية خلال السنوات التي تلت حتى الآن، وهي التي تشكل الوعيَ القوميَّ الراهن، بما فيه من سوء الظنّ الجارف بالطرف الآخر والتخويف منه وضرورة انتهاج طريق قوة الذراع العسكرية. وهو، بهذا، يعارض الآراء التي تقول إنَّ حرب العام ١٩٤٨ أو حرب العام ١٩٦٧، هما أو أي منهما كان المؤسس لدولة إسرائيل بمزاياها الراهنة وللهوية اليهودية المعاصرة، أو العامل الأساس في بلورة شكل علاقاتها وتعاملها مع العرب عموما ومع الشعب الفلسطيني خصوصا. وهو، لهذا، اختار أن يسمّي كتابه: "١٩٢٩، سنة الصفر في النزاع اليهودي العربي". فمن هذا الصفر، من هذا العام، تبلورت ملامح الصراع وملامح المجتمع اليهودي الإسرائيلي وشكل تعامله مع العرب. في هذا الطرح، القابل للجدل بدون شك، يقدم هيلل كوهن فكرة جديدةً بامتياز.

كما أشرنا آنفاً، يعتمد مؤلف الكتاب على سلسلة طويلة ومتنوعة من المصادر، بما فيها المصادر العبرية الرسمية وشبه الرسمية والصحافيّة العبريّة والعربيّة والإنكليزيّة، والمصادر الرسمية البريطانية (الانتدابية)، والمصادر الأكاديميّة وغير الأكاديميّة العربية، مرورا بكتب مذكرات وسير ذاتية ورسائل مختلفة، وصولاً إلى منشوراتٍ صادرة عن أوساط دينيّة يهوديّة ضيقة وصحف لحركات دينية غير واسعة النفوذ. ويساعدُه على التعامل مع كل هذه المصادر خلفيته المثيرة. فقد كان، في مطلع شبابه، تلميذا في مدرسة يهوديّة دينية، وكان لفترة ما مستوطناً في الأراضي المحتلة منذ العام ١٩٦٧، ما أتاح له التعرف على الأوساط الاستيطانية بكل مُركّباتها، وكذلك أتاحت له خلفيته التعرف على الفلسطينيين بمن فيهم سكان المخيمات، من خلال مرافقتهم ومصادقتهم، والتعرف على اللغة العربيّة المحكيّة.

نستطيع أن نلخّص الأفكار الرئيسة للكتاب بترجمة خاتمته، التي عاد فيها المؤلف ليؤكد مركزية أحداث العام ١٩٢٩ في بلورة الوعي القومي الإسرائيلي– اليهودي، وأيضا في بلورة الوعي القومي الفلسطيني، وفي تحوّل إسرائيل إلى دولة تعتمد على القوة، تمجّد القادة العسكريين ولا تُحسن الظنَّ بنوايا الآخرين. غير أن الكاتب يسمح لنفسه، في الفصل الأخير وفي الخاتمة باستعراض مواقف الأوساط اليهودية نفسها، بعد الأحداث، وفي طرح موقفه الشخصي.

فالرّواية أو الرّوايات العربية، حسب تحليل هيلل كوهن، تؤكد أن اليهود على مختلف مشاربهم وأيديولوجياتهم، بداية بالعقدين الأخيرين للحكم العثماني، أجمعوا على ضرورة العودة إلى "أرض الميعاد" والسيطرة عليها، سواء بقوة السلاح أو بالتفاهم مع العرب أو بانتظار المسيح، وأن قدوم اليهود الأوروبيّين ومساعي السيطرة على الأرض وأماكن العمل والاستفزازات وغير ذلك من الخطوات العملية على أرض الواقع، محت الفروق بين اليهود الأوروبيين وبين اليهود العرب (الشرقيين) والسفاراديم من سكان الأرض الأصليين، وبين نشيطي الحركة الصهيونية وغير المنتمين أو حتى المعارضين للحركة، وبين المتدينين وغير المتدينين، ووضعت غالبيتهم في بوتقة واحدة باتت تهدد المجتمع العربي وكيانه. ومن جهة ثانية، ومع

صدور وعد بلفور وبداية الانتداب البريطاني، تعمّقت لدى الأكثرية العربية القناعة بأنها مستهدفة من اليهود، بمساندة من الانتداب.

وفيما يتحفظ هيلل كوهن من الأدبيّات العربيّة الخاصّة بأحداث العام ١٩٢٩ ويرفض اللهجة التبريرية لأعمال القتل ضد اليهود، ويدحض الكثير منها، إلا أنّه لا يعارض القناعات العربية بأنهم شعروا بالخطر الداهم وتصرفوا وفقا لهذا الشعور. بل يُظهر كوهن تفهماً لها، ويحاول بذلك فهم الدوافع التي جعلت من بعض العرب مستعدين لقتل جيرانهم اليهود العزّل في الخليل وصفد وغيرهما في العام ١٩٢٩، في وقت يرفض فيه قبول هذه الأعمال، ويسوق مقابلها تفاصيل عن عمليّات الإنقاذ النبيلة التي قام بها عربٌ تجاه اليهود. وهو يحاول أن يفهم لغز قيام جيران وأصدقاء بقتل جيرانهم وأصدقائهم، بعيداً عن الرّواية اليهوديّة الرسميّة المتجذرة. فلا يستبعد أن تكون أعمال القتل التي تعرض لها يهود عزّل نتجت أيضاً عن حالة الرّعب الذي أصابت العرب من سلوك اليهود وخوفهم من سحب الأرض من تحت أقدامهم، إضافة إلى فورة الدم التي أصابت الكثير منهم جراء الإشاعات عن مجازر نفذها اليهود ضد العرب في القدس قبيل عمليات قتل اليهود العزّل. وهو، في هذا الصّدد، يسوق حقائق تحدث شروخاً في الرواية اليهودية الرسميّة بأنّ اليهود كانوا يدافعون عن أنفسهم، وأن العرب ارتكبوا ما ارتكبوا بدافع الكراهية والتحريض ليس إلا.

لا يتعرض هيلل كوهن للسؤال إن كانت القناعة العربية بأن الانتداب البريطاني وقف إلى جانب اليهود في هذا الصراع كان لها ما يبرّرها. ويبدو أنه رأى أن الموضوع يتجاوز حدود بحثه. بالنسبة إليه، الحقيقة التاريخية هي حقيقة نسبية، وكل من يعايش الأحداث يراها بشكل مختلف، حتى داخل مجموعته. غير أنه، في سياق استعراض الآراء في الأوساط اليهودية بعد أحداث العام ١٩٢٩، فإنه يسوق أقوال بن غوريون في العام ١٩٣١ التي جاء فيها صراحة أن اليهود يعيشون ويعملون تحت حماية الإمبراطورية البريطانية. (ص ٣٥٥-٣٥٦). كما يستعرض آراءَ مختلفة، بعد الأحداث، يستشف منها بوضوح أن المشروع الصهيوني هدف منذ البداية لإقامة دولة يهودية، وتحويل العرب إلى أقلية خاضعة في أحسن الأحوال.

لا يتبنى هيلل كوهن الرّواية العربيّة ولا الرّواية اليهوديّة. فهو يفنّد الكثير من الآراء المتجذّرة عند الطرفين، ويطرح علامات استفهام حقيقية حول مجموعة من القناعات. وهو يؤمن أن الأحداث كان يمكنً أن تسير في اتجاه آخر، لو أن اليهود قدموا إلى البلاد بصفتهم طالبي ملجأ، وليس بصفتهم طالبي إقامة دولة على حساب العرب، ولو أن العرب تفهموا أن نزعة اليهود للعودة إلى "أرض الميعاد" وبحثهم عن ملجأ يحميهم من الظلم هي نزعة حقيقية. بالنسبة إليه، ما حدث ليس مصيرا محتوما، باعتبار أنه إلى جانب عمليات القتل كانت عمليات الإنقاذ البطولية. وهي تمنّياتٌ قد لا تروق للكثيرين، ولا يقبلها غالبية المؤرخين.

بقي أن نشير، في هذه الإطلالة السريعة، إلى أن الكتاب هو كتاب ممتاز في أكثر من جانب. وإن كان المؤلف ينسف الكثير من المسلّمات، اليهوديّة والعربيّة، فإنّ الخاسر الأساس من ذلك هو الرّواية الرسميّة اليهودية. فالعرب لم يؤسّسوا أساطير على ركام أحداث العام ١٩٢٩، على عكس الحركة الصهيونية. لذلك، فإنَّ كتاب هيلل كوهن يُحدثُ أكثر من شرخ في هذه الأساطير، التي ما زالت تؤسس للفكر الصهيوني وممارسات القيادات الإسرائيلية ونزعة اللجوء إلى القوة وسوء الظنّ بالطرف العربي ودمغه بالوحشية والكراهية تجاه اليهود لمجرد كونهم يهودا.

نجحت الأوساط اليمينية، بناء على أحداث العام ١٩٢٩، في تنفيذ مشروعها التاريخي، في رأي هيلل كوهن. لكنه يشير، وهذه ليست إشارة عابرة، إلى أن التاريخ لم يتوقف.